سيكولوجية النقد والناقد

بقلم علي زيعور

تمر عملية النقد في ثلاث مراحل اولاها فهم القطعة وهو العمل الذاتي ، ثم تحليلها بحركة انـدراجية متراتبة ، وذلك هو العمـل الموضوعي نوعا او الاجتماعي بكلمة أدق ، وتقوم المرحلة الاخيرة على تقييم البحث اي التمييز بين الغث والسمين وهو الصلة او العـلاقة التي تقوم بين الناقد وموضوعه .

وفهم القطعة هو جمعها في وحدة ، اي اخذ الكثير والمتعدد في امر واحد بطرح شبكة المذهب والنظام عليها لالتقاطها والقبض عليهـا بالفكر والعقل . وطبيعي ان فهم الناقد للقطعة متميز عن فهم الفيزيائي للذرة مثلا ونظرته مختلفة كشرحه لها ايضا . يقول غوبلوان : « الشرح هو في معظم الاحيان معرفة الاسباب ، وسبب كلمة غامضة تجـادل حولها المنطقيون والماورائيون كثيرا ... » (نظام العلوم ص ٣٣)

وانه لمن الكلاسيكي معاكسة الفهم بالشرح باعتبارهما عمليتـان تعتمدان على الذات والاخر ، فايصال ما في النفس للغير حياة للذات وتشويه لكيانها الديناميكي حسب قول الكثيرين من الفلاسفة . لكـن هذه التعاكسية ليست ناجحة الى حد كبير اذ تقود حال تطبيقها الى الصمت او الاحلام ، غير ان اعتبار الشرح والفهم كقطبين اساسيين في عملية النقد امر بديهي وبدل التناقض بينهما يقوم التعاون ثـم التكامل المتبادل ...

لفهم النص فهما متعمقا لا غنى عن صلة وثيقة وصداقة بيـن الموضوع والواضح ، صلة قريبة تقوم على الوداد والاحترام . هـذه الفضيلة الضرورية هي المحبة التي تجعلنا حسب قول ماكس شيـلر نافذي النظر متبصرين بجلاء ، وان عدم وجود هذه العاطفـة عنـد الناقد هي التي تجعله يتربص بالهفوات هادما ، يفتش عن الاخطـاء فينفي ويسفه ويهاجم .

ان المعرفة الصحيحة للعيوب تنتج هي بدورها من التعاطف الذي نشأ عند الناقد ، فالقطعة المعروضة للنقد ـ ككائن خاص له مزايـا عيـوبه ـ تقسّم الناقد وتشرّحـه ، وكشيء واقعـي لا بد من ان تحترم وتحب . لذا تتطلب فضيلة التعاطف هذه صفات في الناقـد ممتازة وغنى داخليا وثروة ثقافية اخلاقية مع ايمان بالقيم والغير ، مما يجعل الحكم النقدي او التقييم قريبا من القاعدة المفروضة بـل يصبح ذوقه هو القيم ذاتها بلا انفصال او تباعد .

وفي العودة الى علاقة الفهم بالشرح وارتباطهما المتين ، نـرى هذا التفاعل بوضوح امام فلسفة افلاطون او عمانوئيل كانط مثـلا ، اذ ما زالت تفهم وتفسر في كل عصر دون الوصول الى الشكل النهائي، فالاثر الانساني كائن غني لا يجف نميره . وامام القطعة الواحـدة يختلف ناقدان ولا يعطيان في كل المرات نفس الشرح والقيم اذ انهمـا ليسا امام شيء موضوعي ، والموضوعية في النقد كعلم انساني صعبة وعسيرة ان لم تكن مستحيلة ، حتى اقترح البعض استبدالها بالتحيز المعقول ، فهل يستطيع الناقد مثلا ان يتخلى عن كونه ابن بيئة وطبقـة له تلك التجارب والعواطف وذلك اللاشعور والثقافة والمفهوم ؟ طبعـا ليس الانسان سجين ذاتيته ، انما الذاتية المقبولة في النقد هـي تلك التي ارتضاها العقل وقبلها ، وهي في الاساس محبة وتعاطف ، فتلك هي فضيلة عملية النقد اليوم والقيمة التي عـلى الناقد تحقيقها وتجسيدها في اعماله .

اما الناقد فانه يبدأ عمله مدفوعا بتوتر داخلي ينشأ مـن ارادة الوصول الى الهدف الذي هو التقييم فتصادفها صعوبات الفهـم وعقبات الشرح التي تعطي التوتر اندفاعه او وهنه حسب قوتهـا . وللتخلص من هذه الحالة النفسية يبدأ البحث والتنقيب . هنـا اي في العقبات المذكورة يكمن سبب العشوائية الظاهرة في اعمـاق الكثيرين من النقاد ، فافعالهم مع شدة التوتر والقلق الناتج كمـا رأينا من صعوبا الفهم والشرح ، يدفعهم للبحث عـن مفرج ، عـن قشة يتمسكون بها لهاجمة المؤلف او تكرار نقد قطعته فيأولـون ويشوهون ويفهمون على فلسفتهم .

لذلك صح قول سارتر : « انني ما أقوله » . والناقد هو مـا يتجسد منه في مهاجمته لتلك الناحية دون تلك والاغضاء عن نقطـة ومدح اخرى ، فتبدو نفسيته بجلاء . وقد تخفى احيانا الا ان مشاغله بصورة عامة توجه سيره النقدي لا شعوريا او بتفكير ونية مدروسة . فينسب الاثر الكتابي الى دوافع عالية ويعطيها المعاني الاخلاقية السامية او يشرح فكرة ممتازة بنتيجة مصادفة او سبب بيولوجي مثلا او اخـر منحـط ...

والناقد امام النص كأنه امام صاحب هذا النص شخصيا ، فاما ان يرى نفسه فوق المؤلف واما على مستواه او دونه الفهم الا اللامبالاة التي يكذبها الحق والواقع . فمن ارادة الاول بمحاكمة انتاج الثـاني يتولد شيء من التباعد وتعيين مستويين غير متساويين ، هذه الفجوة التي يسعى الناقد لاجتيازها لا بد ان يكون ردمها على حساب واحـد من المتبارزين . فاذا رأى النـاقد ضعفه تجنى محاولا التعـويض اللاشعوري ، اما اذا لاحظ ضعف خصمه امام قوته سعى لاظهـار الحالتين بالتمسك بخناق الخصم او الشفقة عليه .

لكن القضية ليست قضية عراك ومدافعة عن النفس فقط . ان امكانية الاخلاق والمحبة اقوى او هي الوجه الثاني لنفس العمليـة . لقد قال باسكال بقيم القلب ، ثم كررها واوضحها ماكس شيلر والجناح الوجودي المؤمن ، وهكذا فالقول بضرورة هيمنة التعاطف والمحبـة على العمل النقدي للوصول الى نتيجة بناءة هو الواجب او هـو المناقبية (الاتيك) Ethique التي تنبع من المعرفة الصحيحـة لسيكولوجية النقد والناقد : ذلك امر معروف بان المعرفة التـامة السليمة للنفس البشرية تقود الانسان الى المستوى الاخلاقي بلا ريب.

علي زيعور